كتاب «جواهر القرآن ونتائج الصنعة» للباقولي

أ. د. مازن المبارك(*)

اسم الكتاب: جواهر القرآن ونتائج الصنعة.

المؤلف: جامع العلوم، أبو الحسن عليّ بن الحسين الأصبهاني الباقولي المتوفَّى سنة ٥٤٢هـ.

المحقق: د. محمد أحمد الدالي. قرأه وحقّق نصّه، وعلّق حواشيه، وصنع فهارسه.

وصدر عن دار القلم بدمشق، في طبعته الأولى سنة ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م.

الكتاب في أربعة أسفار، حوى السِّفر الأوّل مقدّمة التحقيق، ثم حديثاً عن جامع العلوم الباقولي وآثاره، وتعريفاً بكتابه جواهر القرآن، وتحقيقاً لاسم الكتاب وصحّة نسبته إلى مؤلِّفه ببيانٍ وحجج لا تدفع.

ووقف المحقق بعد ذلك عند مصادر المؤلِّف في صنع كتابه، وتابع أخباره ونقولَه بدقّة، حتى عرف ما عزاه المؤلّف إلى قائليه وما نقله وأغفل عزوه أو كتم اسم قائله! ثم وصف مخطوطات الكتاب المعتمدة، وبيّن ما قام عليه تحقيقه للنصّ، وما اشتمل عليه من مقتضيات التحقيق، وهو كلام أتمنّى أن يقرأه من يتصدّى للتحقيق ليدرك مدى المسؤولية التي يتحمّلها المحقّق، وليرى أنه كلّما

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ارتقت رتبة المؤلف في العلم، وكلّما تنوّعت علومه، زادت مسؤولية المحقق وكثرت تبعات عمله؛ فالأعلام القمم من المؤلِّفين يحتاجون إلى محقّقين قمم في التحقيق... ومن حظّ الإمام الباقولي أن هيّأ له محقّقاً متقناً آتاه الله بسطة في العلم وأناة في الطبع، وحبًّا للدقّة والإتقان. وليس العمل مع الإمام الباقولي بسهل ولا يسير، وهو الذي تتبع العلماء ناقلاً ومتفحِّصاً وناقداً لآرائهم وأقوالهم، وهو الذي بلغ مرتبة الاستدراك على الإمامين الجليلين أبي علي الفارسي، وعبد القاهر الجرجاني، وهما من هما!! وقد قام المحقق خير قيام وأنفعه.

ونحن نظلم الكتاب إن قلنا: إنه كتاب في النحو؛ لأنه يضم مجموعة من العلوم، ولكنه يبسط النحو بمعانيه وأصوله ومسائله، ويستخرج جواهر القرآن مما يستدعيه النحو، وما تستدعيه أساليب العربيّة وموضوعاتها كافّة من علوم وأسرار وإشارات. إن الكتاب مصنَّف بحسب أبواب النحو وما جاء من أمثلتها في كتاب الله، وهو من هذا الجانب متَّفق مع كتاب الشيخ عبد الخالق عضيمة «دراسات لأسلوب القرآن الكريم»، ولكنه مختلف عنه بسعة ما يتناوله، وبتعدّد موضوعاته وتفرّعات علومه. وقد ضمّ الكتاب تسعين باباً ذكر الباقولي فيها ما استخرجه من التنزيل من قواعد النحو ودقائقه، مشيراً إلى قيمة النحو في استخراج ما استخرج من الجواهر بالقول:

إنما النحويّ في مجلسه كشِهابٍ ثاقب بين السُّدَف[1]

يَخرج القرآنُ من فيه كما تَخرج الدُّرَّة من بين الصَّدَف

ويبدأ الكتاب بالباب الأول، وهو باب ما ورد في التنزيل من إضمار الجُمل، وتتابع بعده الأبواب التسعون، وكلّ باب منها لموضوع من موضوعات النحو مثل:

(١) السّدف: ج سُدْفة، وهي الظُّلمة.

- ما جاء في التنزيل وقد حذف منه الجارّ.
- ما جاء من أسماء الفاعلين مضافاً.
- في الاختلاف في الضمير، إلى أيّ شيء يعود؟
- في العطف على المضمر.
- في الحمل على المعنى.
- في الإبدال من لام المضاعف.
- في حذف واو العطف.
- في إجراء غير اللازم مجرى اللازم.
- ما جاء في التنزيل وظاهره يخالف ما في كتاب سيبويه.

على أن ما يجب أن يذكر بعد معرفة أبواب الكتاب، أن حديث المؤلِّف في هذه الأبواب كلّها لم يكن حديث النحويّ وحده! بل كان حديث العالم في التفسير ومعاني القرآن وإعرابه، وأحكام الوقف والابتداء، والعارف بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ... وكان قبل ذلك كلّه، وبعد ذلك كله، ذلك النحويّ النافذ البصيرة، الذي يستعين بكلّ علومه ومعارفه، وبالنحو منها خاصّة، وبالكثير من محفوظه ومنقوله مما حوته كتب التراث اللغويّ والأدبي، ودواوين الشعر ومختاراته... ليصل إلى ما يسعى إليه من الكشف عن الجوهرة وجمالها وأسرارها، فيجلّيها للقارئ بيِّنة مضيئة مشرقة.

ولقد كان المحقق رفيق المؤلف، وصاحب رحلته العلمية، ودليل قارئه إلى كل ما يتّصل به علماً ورأياً وتعليقاً وردًّا وفكراً واجتهاداً؛ يوضّح ويشرح ويعلّق، ويقبل ويشكّ ويرجّح، ليجعل من القارئ سائحاً يتبع المحقِّق الذي كان خير دليل في طريق علميّة صعبة طويلة متشعّبة، يأخذ بيد القارئ إلى الثمرات أو الجواهر براحة واطمئنان، ويعاني هو ما يعانيه من مشقّة وعناء.

لقد قرأ المحقِّق الكتاب، وفقَّر نصوصه ورقَّمها، وضبط مادّته وخرّج شواهده من آيات وقراءات وأحاديث وأمثال وأشعار وأراجيز وما اشتهر عن العرب من الأساليب والأمثلة اللغوية والصرفية والنحوية، وعزا كل شيء إلى مصدره، وعلّق على ما يحتاج منه إلى تعليق، وأثبت ما رآه الحق من الوجوه في كثير من مسائل اللغة والنحو والصرف والإعراب وتوجيه القراءات. وللقارئ أن يدرك مدى ما عاناه المحقق في استقصائه لأقوال العلماء وآرائهم، ومعارضته بعضها ببعض، فيما تناقلوه من مسائل العلم، وما شرحوه من أقوال، وما اختلفوا فيه من فروع، تحكي لنا غزارة في العلم، وسعةً في المعرفة والاطلاع، وقدرة عند المؤلف على الضبط والرّبط، ونفاذاً في الفكر والبصيرة.

وحسب القارئ ليعرف مدى معاناة المحقّق، أن يعرف أنه صنع للكتاب من الفهارس ما بلغ عدده ثمانية وعشرين فهرساً، حتى احتاجت إلى فهرس الفهارس أو «دليل الفهارس» الذي اشتمل على فهارس أبواب الكتاب بحسب علومه، وأبواب الكتاب بحسب مسائلها، وفهارس الآيات، والقراءات، والأحاديث، والأمثال، والأشعار والأراجيز، والأساليب، والألفاظ، ومسائل العربية، والألفاظ المفسَّرة، والأضداد، والمعرّبات، والمصطلحات النحوية، والمسائل الفقهية، والبلاغة، والأعلام من جماعات وبلدان وكتب ومصادر وشوارد.

والكتاب بحق جوهرة من الجواهر ودرَّة من درر التراث، لأنه خزانة علوم، ومكتبة قائمة بذاتها بما ضمّ من مسائل لا يكاد يحصرها علم باختصاصه الدقيق، وهو مثال بل حجّة ودليل على أن علوم العربية متكاملة، يعضد بعضها بعضاً، وأن عالم العربية عند السَّلَف من أمتنا لم يكن نحويًّا أو صرفيًّا أو بلاغيًّا، بل كان كل أولئك مجتمعين، وأن ذلك كلّه لم يكن إلّا (آلة) لغيره من العلوم كالتفسير وما يتّصل بعلوم القرآن والشريعة وفقهها،

ولذلك لم يكن يتصدّى للكلام على القرآن ونصّه إلّا من كان متقناً لكل تلك العلوم بأصولها وفروعها، وعارفاً بلغات العرب أو لهجاتها وأساليبها.

ولقد كان المحقق أهلاً لما ندب نفسه إليه وقام به،

وإذا سخّر الإله رجالاً لسعيدٍ فإنّهم سعداء

فلقد أخذ المحقِّق بأيدينا إلى جواهر الكتاب، وكشف المشكلات، وكان دليل الباقولي فيما أخرج من آثاره، وإن كان في تحقيقه مشترعاً شِرعةً ذات نمط صعب، ومسلك عسير على غير أهله، فجزاه الله خير ما يجزي محقّقاً عالماً عن علمه؛ فلقد جعل كتاب الباقولي كتاباً سَفَر عن وجهه، ونثر فوائده وفرائده أمام من لا يقوى على التسلّق إلى أعالي القمم، ولا يقوى على الغوص في تلك اللّجج، فأتى المحقق بعلم الباقولي إلى الشواطئ الآمنة، وإلى السفوح المنخفضة، وظهر وجه التحقيق والتدقيق في كل صغيرة وكبيرة، حتى وصل إلى النتيجة باطمئنان، وزاد في التفقير والترقيم والترابط بين النصوص والمقاطع، والتذكير مما جاء في كتب أخرى للمؤلّف حتى استطاع الدكتور الدالي أن يصوّر لنا، بل أن يُجمّع لنا صور الباقولي العلميّة من جميع آثاره، ليقدّمها لنا شخصيّة علمية مجموعة الأطراف في هذا الكتاب على نحو ما رأينا من غزارة العلم ولطف البصيرة والقدرة على الضبط والإحكام.

وأحسن صنعاً في الفهارس التي تيسّر للقارئ الوصول إلى بغيته من أقرب الطرق وأيسرها، لتنوّعها وكثرتها وحسن تصنيفها. فلقد كانت دليلاً إلى كل صغيرة وكبيرة في أبواب الكتاب التسعين.

وبعد، فقد كنت على نيّة إنهاء المقال، ولكني تذكّرت أن فاضلاً من قدماء المجمعيين كتب تقريظاً لكتابٍ ظهر في حينه، فتعقّبه زميل وكتب يقول: «وكتب زميلنا الفاضل مقالاً في باب التعريف والنقد، ولكنه أثبت النصف المتعلّق

بالتعريف ونسي أو أهمل النِّصْف الآخر، فأين النَّصَف؟!» فعدت أبحث عن منفذ أتمّ به النصف الثاني من المقال، لينطبق عليه النصف الثاني من العنوان!

لم أجد فيما قرأته من الكتاب - وهو كثير - غير كلمة واحدة أخطأ الطابع فيها، وهي كلمة (السراويل)[٢]، وما نسبتها إلى المطبعة إلّا لأنني وجدت المحقِّق يثبتها صحيحة في نشرته لكتاب «الكامل» للمبرد[٣]. ثم لم أجد ما أستطيع السؤال عنه إلّا في موضع واحد وموضوع واحد، هو عنوان الكتاب، فلقد كنت أحبّ أن يقف المحقق عند العنوان ليقول كلمة فيما جاء فيه من الاقتران بين نتائج الصنعة وجواهر القرآن!

لقد قال المحقق كلاماً تحت عنوان «كتاب جواهر القرآن ونتائج الصنعة» تناول فيه الحديث عن اسم الكتاب وصحّة نسبته إلى صاحبه[٤]، وانتهى إلى أن جامع العلوم سمَّى كتابه باسمين معطوفين. وكان كلامه دقيقاً يُطمأنّ إليه.

ولكنّ الذي أسأل عنه هو هذا الجمع في العنوان بين اسمين يدلّ كل منهما على موضوع: أحدهما هو الجواهر القرآنية، والآخر هو الصنعة ونتائجها، أو الصنعة العلميّة. لقد كنت منذ ثلاثين سنة مولعاً بجمع عنوانات الكتب التي تفنّن القدماء في إطلاقها عليها، وتتبعّت عدداً منها محاولاً الرَّبط بينها وبين ما تدلّ عليه من نفوس أصحابها وطباعهم!

وكنت أحبّ أن أسمع من صاحب الباقولي ورفيق رحلته العلمية في جلّ آثاره، وهو الدكتور الدالي، كلمة حول هذا الاقتران في ذلك العنوان: أكان الإمام الباقولي يريد الافتخار والمنّة، فراح يصرّح بأن ما بلغه من الحذق في الصنعة هو الذي أفضى به إلى استخراج تلك الجواهر؟

---

(٢) ص٢٢ من مقدمة التحقيق.

(٣) الكامل للمبرد. تح د. الداليّ ٢/ ٦٤٠.

(٤) ص٢٧ وما بعدها من مقدمة التحقيق.

أما (الصنعة) فقد عرفناها اسماً من أسماء العلم عند أصحابه، وقد تكرّر الوصف بها في كتب التراجم، ووُصف بها كثير من علماء العربية وغيرها في معجم الأدباء، وسمعناهم يصفون العالم فيقولون: إنه يتكلّم بكلام أهل الصنعة، وسمعنا ابن جني يقول مستحسناً ما نقله: «وهذا موضعٌ مُتناهٍ في حسنه، آخذٌ بغاية الصنعة من مُستخرجه»(٥). فالصنعة عندهم درجات، ولكلٍّ منها نتائجها، وكانت نتائجها عند الباقولي جواهر نثرها في كتابه بعد أن استخرجها بحذق صنعته من كتاب الله.

وكأن التذكير بالفضل والمِنَّة أو التميُّز عند الباقولي كان طبعاً طبع به أو نزعة غلبت عليه، فهي ظاهرة في غير هذا الكتاب من آثاره؛ فهو صاحب الفضل في (الإبانة) في تفصيل ماءات القرآن، وكان اسم (ماءات القرآن) كافياً لبيان مضمون الكتاب، ولكنه يعلن أنه هو الذي أبانها، وكذلك كتابه (البيان) في شواهد القرآن، وكتابه (الاستدراك) على أبي عليّ، وكتابه (كشف) الحجّة، و(كشف) المشكلات، و(إيضاح) المعضلات.. فهو صاحب الإبانة والبيان والكشف والاستدراك، والإيضاح..، ولعل المحقق استغنى عن التصريح بكل ذلك مكتفياً بالإشارة إليه وإلى أمثاله بقوله: إن الباقولي عوّدنا أن نسمع منه قوله «وهذا يخفى إلّا على البُزَّل الحُذَّاق» و«هذا يشكل على البُزَّل الحُذَّاق»، وإنه يكني عن الفارسي بقوله: (الفارس) و(فارس الصنعة)، ثم يكون هو الذي يستدرك عليه، ويكشف حجّته.

ولعلّنا بعد هذه الكلمة الموجزة لا يسعنا إلّا أن نشهد للإمام الباقولي بغزارة في العلم، وعمق في الفكر، وسعة وشمول في البحث، وحسن الصنعة في التصنيف؛ إذ يضيف الشبيه إلى شبيهه، والنظير إلى نظيره، ونضيف أن

(٥) الخصائص، ٢/ ١٧٠.

افتخار المؤلف بكتابه ليس بعجيب؛ فكتاب العالم ثمرة جهده، وعصارة فكره، وخلاصة علمه، وفيه من لبِّه وقلبه أكثر مما فيه من قلمه ومداده، إنه كواحد من أولاده، أو لم يقايس الجاحظ بين ولد المرء وكتابه، وانتهى إلى القول: «إنك تجد فتنة الرجل بشعره وبكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمه»(٦).

وأضيف أن تذوّق العلم إذا حظي بحقّه من أهله وناقليه، من مؤلِّفيه ومحقِّقيه، كان فتنة لا تعدلها فتنة، وكان نعمة من أعظم النِّعم. وإن المحقّق إذا أتقن، كان شريك المؤلِّف إذا أحسن، وبذلك تكون نتائج الصنعة في التحقيق كنتائج الصنعة في التأليف، وإذا كان المؤلف استطاع بصنعته أن يستخرج الجواهر فإن المحقق بصنعته استطاع أن يضعها بين أيدي القرّاء وتحت أنظارهم، وقد أسفرت وانجلت حتى بدت مشرقة مضيئة، وإنه كان صنو المؤلف في وصول جواهر القرآن إلى العقول والأذهان. فرحم الله المؤلف، وجزى المحقق خير ما يجازى به العلماء.

* * *

(٦) الحيوان. ط هارون ١/ ٨٩.